

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود

﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾

هذه سورة هود التي قال عنها النبي ﷺ: «شِيبَتَنِي هُودٌ»، وهي سورة مكية نزلت على النبي ﷺ قبل الهجرة النبوية.

ومعنى الآية الأولى منها ما يلي: ﴿الرَّ﴾ سبق الحديث عن الحروف المقطعة في صدر سورة البقرة.

﴿كِتَابٌ﴾ وهو القرآن قد ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ بعجيب النظم، وبديع وبلغ المعاني ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أحسن تفصيل، وتم بيان ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى.

وكان ذلك الإحكام، وهذا التفصيل لهذه الآيات.. !! لما في قوله تعالى:

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾

يعني: حتى لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿إِنِّنِي﴾ مرسل ﴿لَكُم مِّنْهُ﴾ سبحانه ﴿نَذِيرٌ﴾ بالعذاب إن كفرتم ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب إن آمنتم.

وكان ذلك الإحكام وهذا التفصيل لهذه الآيات أيضًا.. لما في قوله تعالى:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِنْعَكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾

يعني: حتى تستغفروا ﴿رَبِّكُمْ﴾ من جميع ألوان الشرك بالله ثم تتوبوا إليه، وتعودوا إلى الطاعة.

فإذا فعلتم ذلك ﴿يَمْنَعَكُمْ﴾ ربكم في الدنيا ﴿مَنْعًا حَسَنًا﴾ بطيب عيش، وسعة رزق، وسلامة عافية ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدد الوقت وهو الموت. ﴿وَيُؤْتِ﴾ كذلك ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ وحسن أداء في العبادة ﴿فَضْلَهُ﴾ أي: جزاءه الحسن.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن العبادة، والاستغفار، والتوبة.. بعد هذا الإحكام والتفصيل لآيات القرآن، قل لهم: ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

خاصة وأنه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في هذا اليوم الذي لا مفر لكم منه. كذلك ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما في ذلك إعادتكم وإثابة المطيع بحسن الجزاء وعقاب العاصي بسوء المصير.

وبهذا تبين أن الإحكام والتفصيل إنما كان؛ لتحقيق مقاصد القرآن، وهي: العبادة، والاستغفار، والتبشير والإنذار.

ثم يبين ربنا عز وجل أنه يعلم ما في صدور أعداء الدعوة، الذين يتولون ويعرضون عن عبادة الله وحده، وعن الاستغفار وعن التوبة. حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

والمعنى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يخفون ما فيها من العداوة، ويتظاهرون بغير ذلك ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ سبحانه.. يخفون علينا!!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ حين يستغشون ثيابهم يتغطون بها للاستخفاء ﴿يَعْلَمُ﴾ عز وجل ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم.

وبذلك لا يغنيهم منا، ولا يخفيهم عنا استخفاؤهم.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: القلوب وما فيها.

بدأ هذا الجزء من القرآن الكريم ببيان كون الله تعالى عالماً بكل شيء، قادراً على كل شيء، وذلك لتقرير وحدانيته سبحانه.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦)

ومعنى الآية: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تدب وتسير في الأرض ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: من الله تفضلاً، لا وجوباً ﴿رِزْقُهَا﴾ الذي تعيش به.

كما أنه عز وجل ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مسكنها في الدنيا، أو في الأصلاب ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ بعد الموت أو في الرحم.

﴿كُلٌّ﴾ ذلك وغيره مع جميع أحواله ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واضح، وهو اللوح المحفوظ.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما في الأرض ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كأيام هذه الدنيا، أو كل يوم منها بألف سنة مما تعدون أو غير ذلك، علم ذلك عنده وحده سبحانه، وكان ذلك الخلق في ستة أيام؛ لتعليم خلقه التاني.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ﴾ قبل خلق ذلك ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾.

وكان هذا الخلق للسموات والأرض، وما فيهما ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أطوع لله، وأكثر شكرًا لنعمه.

هذا، ﴿وَلَيْنَ قُلْتِ﴾ للمشركين ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾
ومحاسبون على ما قدمتم من خير أو شر...
﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لك ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي تقول أو الذي جاء
به القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح تمنع به الناس عن التمتع بلذات الدنيا،
وتصرفهم به إلى البطلان والخداع.

وهذا كلام الكافرين الذين لا تزيدهم النعم والإمهال إلا عتوا وعنادا.
يقول الحكيم الخبير جل جلاله:

﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ آلاَ يَوْمَ
يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨)
يعني: هؤلاء الكفار لو ﴿آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الذي يستحقونه ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾ طائفة
من الزمن ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ ومحسوبة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء واستنكارا ﴿مَا﴾ الذي
﴿يَحْسِبُهُ﴾ ويؤخره ويمنعه من النزول بنا، إلا لأنه ليس حقيقة، ولا يوجد بعث، ولا
حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار؟!!!

﴿آلَا﴾ إنه ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ هذا العذاب، فإنه أبدا ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ولا
ممنوعا وساعتها يكون قد ﴿حَاقَ بِهِمْ﴾ ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من
العذاب، لا ندم يفيدهم، ولا مغيث ينقذهم.

ثم يخبر ربنا سبحانه عن الطبيعة البشرية لهذا الكافر المعاند في موقفها من الشدة
والرخاء، فيقول عز وجل:

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوشُ كُفُورًا﴾ (٩)
أي: إذا أنعمنا على هذا الكافر وأذقناه ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ من: صحة، أو غنى، أو جاه
﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ وسلبناها عنه.

﴿إِنَّهُ﴾ يكون بسبب ذلك ﴿لَيَكُوشُ﴾ قنوط مقطوع الرجاء من أن تعود إليه هذه
النعمة، بل ﴿كُفُورًا﴾ بنعم الله كلها.

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠)

أي: إذا أنعمنا عليه وأذقناه ﴿نِعْمَاءَ﴾ من صحة، أو غنى، أو جاه، أو غير ذلك ﴿بَعْدَ﴾ هذه المصيبة والضرء التي نزلت به ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ غرورا ونسيانا لرحمة الله به ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ بجهدي، وعقلي، ولن ينالني بعدها سوء.

﴿إِنَّهُ﴾ بسبب ذلك النسيان لفضل الله، وبسبب طبيعته الجاحدة لشكر الله ﴿لَفَرِحٌ﴾ بهذه النعماء ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس.

وهذه هي طبيعة الجاحد، وأما المؤمن المتّصف بالصبر والعمل الصالح، فيقول عنه ربه عز وجل:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١١)
يعني: وليس هكذا المؤمنون ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في الشدة والمحنة، وكل ابتلاء ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في جميع أحوالهم لا يأسون من رحمة الله، ولا يكفرون بنعمه تعالى: في السراء، وفي الضراء.

حيث إنهم في المحن. كما أنهم بعد زوال المحن ليسوا فرحين بطرا، ولا فخورين غرورا، ولهذا فقد من الله عليهم عظيم العطاء.

حين يقول: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم مهما عظمت ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ من النعيم المقيم، والأمن من عذاب الله، والنظر في الجنة إلى وجهه الكريم.

ثم يثبت الله تعالى رسوله ويؤازره في دعوته أمام هذه الطبيعة العنيدة للمشركين، والتي كشف لنا بعضا من صفاتها في الآيات السابقة.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢)
أي: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد بسبب طبيعتهم هذه ﴿تَارِكٌ﴾ تبليغ ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰ﴾

إِلَيْكَ ﴿إِلَيْهِمْ مَخَافَةٌ رَدَّهُمْ لَكَ، وَاسْتَهْزَاءُهُمْ بِكَ، وَلَعَلَّكَ ﴿وَصَافِقُ بَدءٍ﴾ أَي: بتلاوته عليهم ﴿صَدْرُكَ﴾. وذلك الترك والضيق مخافة ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ متعنتين ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ لتكون غنيًا، وننفعه معك ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ من الملائكة؛ لنصده.

يا محمد.. لا تهتم بكلامهم هذا، وبلغ كل ما أوحى إليك، ولا يضيق به صدرك. فلست عليهم بوكيل، ولا عن مواقفهم بمحاسب ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ فأندرهم، ولا تخش شيئًا، ولا تُخَفِ شيئًا، ولا عليك الإتيان بما طلبوا واقترحوا.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ، يجازيهم بما يستحقون، فتوكل عليه، ووكل أمرك كله إليه.

يا محمد ماذا يقولون لك..؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

يعني: هل يقولون افترى محمد القرآن، واختلقه من عند نفسه..؟

﴿قُلْ﴾ لهم إن كنت قد افتريته أنا، فأنتم أرباب الفصاحة ﴿فَأْتُوا﴾ إذن ﴿بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ﴾ من عندكم ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ من صنعكم ﴿وَادْعُوا﴾ معكم لتحقيق هذا الغرض ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وافعلوا ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنني افتريته من عندي. قل لهؤلاء الكافرين سأمهلكم ما شئتم.

﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ظُلْمًا لَّكَ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: فإن لم تستطيعوا أنتم ولا من تدعونهم من دون الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴿فَاعْلَمُوا﴾ إذن ﴿أَنَّمَا أَنْزَلَ﴾ هذا القرآن ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ومن عند الله.

وبالتالي فاعلموا ﴿أَنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ بعد هذا كله ﴿مُّسْلِمُونَ﴾، ومنقادون لله تعالى، ومتبعون لشرعه؟ لعل وعسى أن يكون..!!

وإذا كان المانع للناس من اتباع القرآن، ومن عبادة الله، والاستعداد للآخرة هي الدنيا، فإنه تبارك وتعالى يقول:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)

معنى الآية: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ امتلاك ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ والتمتع بزینتها ويعمل لذلك، ويجتهد فيه ﴿نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: نحقق لهم ما يريدون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في أعمالهم ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون لأننا ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وهذا قد عمل للدنيا فقط، واجتهد فيها، وأخلص لها، وليس له غير ذلك.

وأما في الآخرة، فيقول عنهم ربهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

يا الله!! ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ نعم: لأنهم ما عملوا في الدنيا لمرضاة الله، وإصلاح البلاد، وإسعاد العباد، ولكنهم أرادوا فقط التمتع بزينة الحياة الدنيا والعبث بها.

ولذلك: ﴿حَبِطَ﴾ ضاع ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ لأنه بلا ثواب، ولا نتيجة.

ومن هنا: ف ﴿بِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ألا فليتنبه الغافلون!! هذا حال مَنْ أراد بعمله ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥]!!

فما حال مَنْ أراد بعمله وجه الله والدار الآخرة؟ وهل يستويان؟ يقول الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيٍّ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧)

يقول تعالى: لا يستوي أبدًا مَنْ عمل للدنيا فقط - لأنه بغير هدى من الله - وَمَنْ عمل للآخرة؛ لأنه ﴿عَلَىٰ يَنْتَهٍ﴾ وبرهان بأن دين الإسلام هو الحق والهدى ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾. كما أن هذا البرهان والدليل على أن الإسلام حق يتلوه، ويعززه ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: جاءه بذلك شاهد من الله، وهو محمد ﷺ، ومعه القرآن الكريم.

﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي: القرآن - كذلك - كان ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ ﷺ ﴿إِمَامًا﴾ قدوة للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين يعملون للآخرة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن. ولذلك فلهم الجنة، وأما ﴿مَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿أَتْبَاعُ الْمِللِ كُلِّهَا﴾ فَاَلْتَّارُ مَوْعِدُهُ ﴿ومصيره﴾.

﴿فَلَا تَكُ﴾ أيها العاقل ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أرسله مع محمد ﷺ، هداية ونورا.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به، مع وضوح الأدلة على الوحي به. هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ويكذبون على الله، ويعملون للدنيا فقط يصفهم رب العزة فيما يلي بأربعة عشر وصفًا:

يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨)
يعني: ليس هنا ظالم أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ في نسبة الشريك والولد إليه، وجعل له شريكًا، أو ولدًا، تعالى الله عن ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أوصافهم هي هذه:

الوصف الأول: يفضحهم ربهم يوم القيامة ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عرضًا تظهر معه فضائحهم.

الثاني: يفضحهم أهل الحشر ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ تشهيرًا بهم ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

الثالث: يلعنهم الله يوم القيامة ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هؤلاء.

وهذه الثلاثة في الآخرة.

وفي الدنيا.. يقول عنهم:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ﴾ ﴿١٩﴾

الرابع: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دين الله واتباعه والعمل به.

الخامس: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون الحياة الدنيا معوجة إلى غير ما أراد الله لها، ولخلقه فيها.

السادس: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ﴾ فلا يعملون لها.

ثم يقول الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

الوصف السابع: أنهم ضعفاء أمام قدرة الله ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا﴾ ولن يكونوا أبدًا ﴿مُعْجِزِينَ﴾ الله يستطيعون الهرب منه، ومن عذابه لهم.

الثامن: ليس لهم أنصار ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ينصرونهم، أو يمنعون عنهم عذاب الله.

التاسع: عذابهم مضاعف ﴿يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾. العاشر: صم عن سماع الحق ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحق، سماع انتفاع به.

الحادي عشر: عمي عن آيات الله ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ما يدلهم على الإيمان والهدى. ثم يقول الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٢١﴾
الوصف الثاني عشر: أنهم خسروا أنفسهم ﴿أُولَئِكَ﴾ هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ومصيرهم إلى النار.

الثالث عشر: خذلهم ما كانوا يعبدونه من دون الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ من الآلهة، التي كانوا يزعمونها.
أخيرًا: يقول ربنا عز وجل:

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ (٢٢)

وفي هذه الآية الكريمة: الوصف الرابع عشر لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ويكذبون على الله، ويعملون للدنيا فقط، حيث يقول ربنا: حقًا هؤلاء ﴿فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾؛ لأنهم استبدلوا دركات جهنم عن درجات النعيم، واعتاضوا عن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته.

وبعد بيان حال الكافرين المعذنين، يكون بيان حال المؤمنين المنعمين في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٣)

ومعنى الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم وعقولهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجميع جوارحهم ﴿وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وخضعوا وخشعوا لجناب ربهم، وجاؤوا بأعمالهم وجلين خائفين راجين أن تقبل منهم، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يموتون، ولا يمرضون، ولا يهرمون، ولا ينامون، ولا يتغيطون.. إلخ.

وبعد أن ذكر الله أحوال الكفار وصفاتهم، وما كانوا عليه من العمى عن الحق والصمم عن سماعه، وذكر المؤمنين، وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة.

ذكر فيهما مثالا مطابقا، فقال جل وعلا:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

ضرب الله لنا هذا المثل حيث شبه ربنا عز وجل فريق الكافرين بالأعمى عن معرفة وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، والأصم عن سماع الحق فلا يسمع ما ينتفع به، كما شبه سبحانه فريق المؤمنين بالبصير، الذي يعرف وجه الحق في الدنيا والآخرة، والسميع للحق، الذي يعمل به ويبلغه.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ وصفة..؟

لا.. أبداً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعبرون فتنتفعون فتكونون من أهل الإيمان..؟

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن موضوع العبادة، والاستغفار، والتوبة، وبيئت أن الناس بالنسبة لهذا الموضوع فريقان: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، وضربت لكل فريق مثله، تقدم الآيات فيما يلي نماذج حية واقعية من قصص بعض الأنبياء ﷺ وأقوامهم ومواقفهم من موضوع العبادة هذا. فتقدم: قصة نوح ﷺ مع قومه.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

والمعنى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته.

فقال لهم: يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أنذركم وأخوفكم لتتقوا أنفسكم من عذاب الله، وكلامي واضح، وحجتي واضحة.

ودعوتي لكم ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وحده حيث إنه ما لكم من إله غيره.

يا قوم ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن خالفتهم ولم توحدا الله وتعبدوه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يوم القيامة، فآمنا، واعبدوا الله وحده، واستغفروه، وتوبوا إليه.

ماذا كان جوابهم؟

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الرؤساء الذين يملأون العيون

أبهة، والصدور هيبة، في الجواب عليه ثلاثة أشياء: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لست بمليك، ولا ملك، ولا فضل علينا.
 ﴿وَمَا نَزَّلَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا﴾ أي: ضعفاؤنا وفقراؤنا وأسافلنا ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ الذين يؤمنون بالشيء سريعاً دونما تفكير وإعمال عقل منهم.

ومن جهة ثالثة: ﴿وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في مال أو خلق أو جاه ﴿بَلْ﴾ نحن ﴿نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ﴾ فيما تدعونه.
 وهذا: هو قول المعاندين للحق، في كل العصور، وكل البيئات.
 وهنا: ردٌ عليهم نوح عليه السلام بهذه الردود بغاية التلطف والأدب، شأن الأنبياء والدعاة إلى الله عز وجل:

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنَنِ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَفَعِمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ (٢٨)

وهذا هو الرد الأول ومعناه: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ما رأيكم ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ أنا ﴿عَلَى يَنَنِ﴾ وبقين ﴿مِّن﴾ وحدانية ﴿رَّبِّي﴾ كما أنه سبحانه ﴿ءَاتَنِي رَحْمَةً﴾ وهي النبوة ﴿مِّنْ عِنْدِهِ﴾ لأبلغكم رسالة الله، ﴿فَفَعِمْتُ﴾ وخفيت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هذه الأشياء ولم تفهموها ولم تؤمنوا بها!!

﴿أَنْزَلِمُكُمْوهَا﴾ ونرغمكم على الإيمان بهذه الوحداية، وهذه النبوة ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾؟ إن هذا لا يصح ولا يكون، حيث إنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].
 ثم يقول عليه السلام:

﴿وَيَتَقَوَّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ﴾ (٢٩)

الرد الثاني: قال ﴿وَيَتَقَوَّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ وهو تبليغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد ﴿مَا لَّا﴾ من عندكم، وإلا كان لكم الحق في موقفكم هذا.

ولكني أبتغي وجه الله فقط ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وثوابي ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وحده.
 الرد الثالث: قال لهم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من عندي، ولا من متابعتي
 كما تريدون وتطلبون؛ حيث ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ ويشكونني إليه
 إن نفذت رغبتكم الخاطئة وطردهم، كما أنه هو الذي يجازيهم
 ويكافئهم لا أنتم، فلم تبخلون عليهم بالهدى !!
 والله، ليس لهذا من سبب فيما أرى ﴿وَلَكِنِّي أَرْكُزُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ قدرهم
 عند الله، كما أنكم تجهلون قيمة ما أدعوكم إليه. ثم قال ﷺ:

﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
 وهل فيكم ﴿يَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ وينقذني ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ ؟ إن
 طَرَدْتُهُمْ ﴿من ساحة الإيمان بناءً على رغبتكم؟ طبعاً لا يوجد.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعضون وتعطلون عن موافقكم إذن؟ ثم قال ﷺ:

﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
 لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا
 لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢١)

وهذا هو الرد الرابع.. ومعناه: يا قوم أنا لا أكذب، ولا أدعي العلم بما ليس
 لي به علم، ولذلك: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ وأدعي فضلاً عليكم، حتى
 تتبعوني.

﴿وَلَا﴾ أقول لكم إنني ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم عن آباءكم الأولين، وأعرف ما
 في ضمائركم، وضمائر أتباعي.

﴿وَلَا أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود:

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ وتحتقر ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ من أتباعي المؤمنين ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا أو في الآخرة، تحقيقًا لرغبتكم، ف ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ﴾ ولست أنا، وسيجازيهم عليه، ولست أنا ولا أنتم.

يا قوم ﴿إِنِّي﴾ لو كذبت عليكم، وادعيت العلم بما ليس لي به علم، وقلت شيئًا من ذلك، لكنت ﴿إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وبهذا رد عليهم بمنتهى الحزم ومنتهى الأدب، دون أية مساومة أو تفريط في حق الذين آمنوا معه واتبعوه.

فماذا كان موقفهم بعد هذا الوضوح، وبعد أن قامت الحجة عليهم؟ رفضوا الحق، وأعرضوا عن أهله، حيث:

﴿قَالُوا يَنْحُوحٌ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢)

أي: ﴿قَالُوا يَنْحُوحٌ﴾ دعوتنا للتوحيد وعبادة ربك فرفضنا وأبينا و ﴿قَدْ جَدَلْتَنَا﴾ وأقمت علينا الحجج والأدلة، فرفضنا دعوتك، وأبينا اتباعك ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ وأتعبتنا ولن نتبعك ولن نؤمن معك، وقد هددتنا بالعذاب.

﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا﴾ من هذا العذاب ﴿إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تهددنا به.

وهنا: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٣)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم نوح ﷺ: أنا لا أملك أن أتاكم بشيء من هذا العذاب ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ عاجلاً أو آجلاً ﴿إِن شَاءَ﴾ هو لا أنا، فهو الذي يملك أمري وأمركم وأمر كل شيء. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ له سبحانه أو هاربون منه.

ثم قال لهم:

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣٤)

يعني: كما أنني لا أتاكم بما أعدكم به من العذاب، بل يأتاكم به الله إن شاء، فإنه ﴿لَا

يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي ﴿لَكُمْ وَوَعظي إياكم﴾ ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ﴾ وأحببت أن ينصلح حالكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ﴾ لا يريد ذلك لكم، بل ﴿يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ويضلحكم، بسبب ظلمك وطغيانكم وعنادكم.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ المتصرف في أموركم ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

وهنا يقول رب العزة:

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يعني: بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: قوم نوح، على نوح ﷺ أنه ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ أي: هذا الذي بلغنا به، من الدعوة إلى التوحيد والعبادة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نوح ﴿إِنْ﴾ كنت قد ﴿أَفْتَرَيْتُهُ﴾ واختلقته من عند نفسي ﴿فَ﴾ هذا إجرام، و﴿عَلَيَّ﴾ وزر ﴿إِجْرَامِي﴾.

ولكنني لم أخلقه من عند نفسي حتى أكون كذلك، بل أنتم المجرمون برفضكم دعوة التوحيد، ورفضكم عبادة الله سبحانه.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْرِمُونَ﴾ في رفضكم هذه الدعوة، ومجرمون في نسبتكم الافتراء والاختلاق إليَّ.

وبعد هذا التأكيد لصدق نوح ﷺ: تواصل الآيات عرض باقي تفاصيل هذه القصة.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: أوحينا إلى نوح بقرب النهاية وأخبرناه، بـ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾ بعد هذه المدة التي قضيتها بينهم، وهي ألف سنة إلا خمسين عامًا، تبليغهم فيها دعوة الله، ولم يؤمن معك ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ ولذلك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِـ﴾ سبب ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ معك، من الإيذاء، والتكذيب، والاستهزاء.

ثم قال عز وجل له:

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِقُونَ﴾ (٣٧)
 ﴿وَأَصْنَعُ﴾ يا نوح ﴿الْفُلْكَ﴾ السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ إن كنت لا تعرف، فسنعلمك
 ونحميك من الخطأ في صنعها، وستكون هذه السفينة آلة النجاة لك ولمن آمن معك من
 عذابنا ﴿وَ﴾ إذا جاء العذاب ﴿لَا تَخْطِبْنِي﴾ ترك إهلاك ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بشفاعتك
 لهم؛ حيث ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِقُونَ﴾ لا محالة. وبدأ نوح ﷺ:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا
 مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨)

وصار نوح ﷺ ﴿يَصْنَعُ﴾ السفينة تنفيذًا لأمر الله تعالى.
 ﴿وَ﴾ كان ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهو يصنعها ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾
 واستهزؤا به، فما كان يأبه لسخريتهم، ولا يتأثر باستهزائهم..!!
 بل كان يقول لهم: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ غدا بإذن الله،
 عند رؤية إهلاككم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منا عند رؤيتكم صناعة السفينة.
 ثم قال لهم مهددًا:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٩)
 أي: إذا جاءت ساعة النهاية ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ونعلم أيضًا ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ منا
 ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ في
 الآخرة. وبالطبع، فأنتم أهل هذا الخزي، وذاك العذاب المقيم.
 ثم يخبرنا ربنا عز وجل تفاصيل ساعة النهاية هذه، فيقول:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
 وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠)
 يعني: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب وحانت ساعة النهاية، وصارت الأرض تفور

بالماء، كما يفور تنور الجناز بالنار.. ﴿قُلْنَا﴾ لنوح ﴿أَحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ﴾ أي: من كل صنف ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. واحمل كذلك ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ منهم، أنه من أهل النار، فلا تحمله ولا تحزن عليه.

﴿وَ﴾ احمل أيضًا ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ معك واتبعك. ﴿وَمَا﴾ كان قد ﴿ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مع أنه مكث فيهم كثيرًا. وحمل نوح ﷺ في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. وحمل فيها - كذلك - أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾. وحمل فيها - ثالثًا - ﴿مَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرِهَا وَمُرْسَهَا﴾ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ أي: ﴿وَقَالَ﴾ نوح ﷺ لأهله والمؤمنين معه ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا﴾ وقولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وحده نركب، وعليه وحده نتوكل، فباسمه وحده، يكون جريها على وجه الماء، وباسمه وحده يكون رسوها على اليابسة؛ حيث إنه به وحده سبحانه: مجريها ومرسيها. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، حيث خلصهم ونجاهم. فركبوا فيها وأخذوا يقولون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرِهَا وَمُرْسَهَا﴾ .. !!

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ وصارت السفينة ﴿تَجْرِي بِهِمْ﴾، وهم فيها، على وجه الماء، والموج كأنه الجبال، في الارتفاع والعظم.

يقول الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿[القمر: ١١، ١٢].

وهنا.. وفي هذه الأمواج العاتية والظروف القاسية: ﴿نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ النداء

الأخير، بعد أن دعاه كثيرًا قبل ذلك للإيمان معه، فلم يستجب ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عن الماء وأمواجه في البداية. قال له: ﴿يَبْنِيَّ اَرْكَبْ مَعَنَا﴾ وأمن لتنجو مع المؤمنين ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فتغرق. ولم يستجب الولد لنداء أبيه، حيث:

﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣)

أي: لم يستجب، ولم يؤمن، ولم يركب بل ﴿قَالَ﴾ لأبيه ﴿سَآوِيَ﴾ أي: سألجأ وأصعد ﴿إِلَىٰ جِبَلٍ﴾ عال ﴿يَْعَصِمُنِي﴾ وينجيني ﴿مِنْ﴾ الغرق في ﴿الْمَاءِ﴾. ﴿قَالَ﴾ له والده: يا بني آمن، واركب معنا، فإنه ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾ ولا منجني ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِلَّا مَنْ﴾ آمن و﴿رَحِمَ﴾.

ولم يستجب وصارت السماء تنهمر بالماء، والأرض تفجر بالماء، والماء يعلو، والأمواج تتلاطم، حتى ﴿حَالَ﴾ و﴿فَرَّقَ﴾ ﴿بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ ولم يركب مع أبيه، وغرق ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ الكافرين الظالمين. أخيرًا:

﴿وَقِيلَ يَتَّارُ ائْبَلِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ اَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْاَمْرُ وَاَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

يعني: وقال الله تعالى: ﴿يَتَّارُ ائْبَلِي مَاءَكِ﴾ الذي تفجر منك ﴿وَنَسَمَاءُ اَقْلِي﴾ وكفي عن المطر، وبهذا ﴿غِيصَ الْمَاءِ﴾ ونقص، وظهر وجه الأرض مرة أخرى، جافًا يابسًا ﴿وَفُضِيَ الْاَمْرُ﴾ وانتهى، وهلك الظالمون ﴿وَاَسْتَوَتْ﴾ السفينة بالمؤمنين سالمة آمنة ﴿عَلَىٰ﴾ المكان المسمى بـ ﴿الْجُودِيِّ﴾. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ وهلاكًا ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وبعد أن تَمَّت النجاة، واستقرت الأمور تذكّر نوح ﷺ ولده وأخذته شفقة الأب، وتطلع إلى رحمة ربه.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥)

قال نوح عليه السلام لربه مستعلمًا: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَلِإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يتخلف، وقد غرق ابني وهلك مع الهالكين، وكلي ثقة وإيمان بأنك ﴿أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ ولكن رجائي في نجاة ابني من النار باقٍ، وأملِي في ذلك كبير. وأجابه المولى سبحانه:

﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦)

أي: ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿يَنْتُحِ إِنَّهُ﴾ لم يؤمن، ولذلك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم، حيث كان وعدي بإنجاء أهلك إلا من سبق عليه القول منهم بعدم الإيمان، وهذا ممن سبق عليه القول بعدم الإيمان، وعدم النجاة، وأما هذا الولد، فـ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وأنا أعلم به منك.

ولذلك: ﴿فَلَا تَسْأَلِنِي مَا لَيْسَ لَكَ﴾ أي: إلا بجواز سؤال عليه السلام، وهذا السؤال لا يجوز لك أن تسأله.

يا نوح: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ بمواعظي، كراهة ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فتسأل ما يسألون. وعلى الفور:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٤٧)

يعني: ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام مستغفرًا ونادما على سؤاله ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ وألجأ إليك تائبًا من ﴿أَنْ أَشْكَكَ﴾ بعد ذلك ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ صحيح.

فاغفر لي يا رب وارحمني ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ غفرانك علي ما فرط مني ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ برحمتك وعصمتك عن العود لمثله ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة. وفي النهاية:

﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سَمْعِيهِمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

أي: قال تعالى لنوح **﴿إِذَا هَبَطَ﴾** انزل من السفينة **﴿يَسْلَمِ﴾** بتحية وأمن من الغرق **﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾** في ذريتك **﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾** أيضًا. ولكن معك كذلك من سينشأ من ذريتهم **﴿وَأُمَمٌ سَتُغْتَبِهُنَّ﴾** في الدنيا بسعة الرزق وطيب العيش **﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَوْتٌ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** لكفرهم.

ويعقب ربنا عز وجل.. على قصة نوح هذه قائلًا لمحمد عليه الصلاة والسلام:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٩)

يعني: هذه القصة، وما حدث فيها نبأ **﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾** الذي لا يعرفه أحد **﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾** ونفصها عليك **﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾** من قبل أن نوحها إليك، حتى يقول بعضهم، إنك تعلمتها منه، ومع هذا سيكذبونك، وسيعاندونك.

﴿فَاصْبِرْ﴾ ولا تحزن عليهم حيث **﴿إِنَّ الْعَقِيبَةَ﴾** الحسنَى في النهاية **﴿لِلْمُنْفِقِينَ﴾** وهذا ما كان مع من سبقك - كما عرفناك - من المرسلين.

وتبدأ الآيات الكريمة في عرض قصة أخرى لنبي آخر، وأمة أخرى، وهي:

قصة هود **﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾**، مع قومه «عاد». حيث يقول المولى عز وجل:

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠)

والمعنى: أرسلنا **﴿إِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾** يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله، **﴿قَالَ﴾** لهم **﴿يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** وحده **﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم: إن لم تعبدوا الله، وعبدتم غيره ما **﴿أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾** أي: كاذبون في نسبة الألوهية إلى غير مستحقها. ثم قال:

﴿يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١)

﴿يَقَوْمِ﴾ منتهى التلطف معهم والرفق بهم ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ وهو تبليغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ من عندكم إلا كان لكم الحق في موقفكم هذا.

ولكنني أبتغي وجه الله فقط ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وثوابي ﴿عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني وحده، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتؤمنون؟! ثم واصل معهم قائلاً:

﴿وَيَقَوْمِ أَسْتَغْفِرُكُمْ رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾

والمعنى: ﴿وَيَقَوْمِ﴾ أقول لكم ناصحاً ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ رَبُّكُمْ﴾ عما سبق من كفركم وعنادكم بالإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ سبحانه، عما سبق من ذنوبكم، وعما يأتي من تقصيركم، فإذا سمعتم نصحي، واستغفرتكم، وتبتم.. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ بالمطر ﴿مِدْرَارًا﴾ كثيراً فتزرعون وتحصدون، ويأتيكم الرخاء والغنى.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ في المال والولد، وكل شيء ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ الحالية. يا قوم استمعوا إلى نصحي، واعملوا به ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عني وعن دعوتي فتظلوا ﴿مُجْرِمِينَ﴾.

أتدرون بماذا أجابوه..؟

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ له تكبراً وعناداً واستهزاء ﴿يَهُودُ﴾ إنك ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بمعجزة دالة على صدقك!!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ أي: بالذين نترك ﴿آلِهَتِنَا﴾ وعبادتها ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: بسبب قولك لنا اتركوها، واعبدوا الله.

وعلى كل حال، حتى ولو جئت ببينة ﴿مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تحاول معنا ما تحاوله لتؤمن بك. ثم قالوا له:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ إِلَهِنَا يَسُوءُ﴾ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

أي: ما ﴿نَقُولُ﴾ يا هود ﴿إِلَّا﴾ أنه قد ﴿أَعْرَضَكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ إِلَهِنَا﴾ التي نعبدها ﴿يَسُوءُ﴾ بسبب حربك لها. ولذلك فأنت تهذي، وتقول ما تقول. وعلى الفور.. ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم هود ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ على أني بريء مما تقولون، إذ لا تستطيع آلهتكم فعل شيء ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ أنتم بدوركم على ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أنتم مع ربي آلهة ترعمونها ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غيره.

وعلى كل حال هذا موقفني منكم ومن آلهتكم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم، وافعلوا ما شئتم من كل، ما تستطيعون من إيذائي والكيد لي ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ أي: لا تتأخرون في هذا الإيذاء الذي تريدون، وفي هذا غاية التحدي، ومنتهى الثقة بنصر الله، وعلامة التوكل عليه. ولذلك قال مباشرة:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٦﴾

أي: اعتمادي ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى هو ﴿رَبِّي﴾ الذي أؤمن به وأعبده، وهو ربكم الذي لا تؤمنون به ولا تعبدونه.

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تتحرك وتذب على وجه الأرض، ومنها أنتم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ عز وجل ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ مالك أمرها، وهي تحت سلطانه.

ولذلك كان توكلي عليه، وتوجهي إليه، وعبادتي له.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على الحق الواضح يدل عليه، فأمنوا به واعبدوه وتوكلوا عليه. ثم قال لهم أخيرًا:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: قال لهم هود ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا وتعرضوا عن دعوتي، وترفضوا الإيمان بالله، وتصروا على الكفر، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ من دعوتكم للإيمان وعبادة الله وحده، وليس لي عليكم إكراه ولا إجبار.

وسيهلككم الله ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي﴾ في الأرض وفي الأموال والديار ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يؤمنون به ويوحّدونه، ويعبدونه، وأما أنتم فـ: ﴿لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ إنما سيعود الضرر عليكم وحدكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم، ولا تفوته مؤاخذتكم وعقابكم. وفي النهاية:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيْظٍ ﴿٥٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب أهلكنا عادًا، عن طريق الريح العقيم حيث:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُصْزَوْنَ﴾ [فصلت: ١٦].

وهذه الريح: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعًا لَّيَالٍ وَنَمَیْنَةً أَيَّامٍ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُّخْلِ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

و﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وفضل من لدنا ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيْظٍ﴾ أصاب الكافرين من قوم هود.

ويعقّب ربنا عز وجل على قصة هود هذه قائلاً للدنيا كلها، ليعتبر أهلها:

﴿وَيْلٌكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

هذه عاد ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وكفروا بها ﴿وَعَصَوْا﴾ رسل ربهم حينما دعوهم إلى الخير والفلاح، ومن عصى رسولاً واحداً، فقد عصى الجميع ﴿وَاتَّبَعُوا﴾

بدلاً من ذلك ﴿أَمَرَ﴾ ودعوة ﴿كُلِّ جَبَّارٍ﴾ من رؤسائهم ﴿عَنِيدٍ﴾ للحق، بعيد عنه.

وكان جزاؤهم كما عرفنا، وفوق ذلك يقول الحق:

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ ﴿٦٠﴾

أي: أن اللعنة والطرده من رحمة الله تبتعتهم في الدارين، الدنيا والآخرة، وما ذاك إلا لأنهم ﴿كَفَرُوا﴾ بربهم وازدادوا طغياناً.

﴿أَلَا بُعْدًا﴾ وهلاكاً ﴿لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ يستحقونه، وما ربك بظلام للعبيد.

انتهت بذلك قصة هود عليه السلام، كما عرضتها هذه السورة، وتبدأ الآيات الكريمة في عرض قصة أخرى لنبي آخر وأمة أخرى، وهي: قصة صالح عليه السلام مع «ثمود». حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿٦١﴾

يعني: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ وهم سكان «الحجر» منطقة بين الشام والمدينة المنورة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده.

حيث ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يعبد.

ويلاحظ: أنها نفس دعوة الرسل أجمعين، من أولهم إلى محمد ﷺ.

ثم قال لهم: هذا الإله الذي أدعوكم إلى عبادته وحده ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أنشأ أبائكم آدم منها، وأجسادكم منها، فلا تتكبروا على عبادته وأنتم خلقه.

وكذلك هو الذي ﴿أَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: طلب منهم عمارتها وإصلاحها، وحسن الخلافة فيها، فأطيعوه.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: آمنوا به، واطلبوا مغفرته.

﴿ثُمَّ﴾ كلما أذنبتكم بحكم بشريتكم ﴿تَوْبُوا﴾ وارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ يغفر لكم.

حيث: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي هو ربكم أيضًا ﴿قَرِيبٌ﴾ برحمته ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن آمن به، وتاب إليه، ودعاه.

استمعوا إلى إجابتهم له، وردهم عليه:

﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾﴾
أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿يَصْلِحْ﴾ ما هذا الذي تقوله؟ يا صالح، لقد كنا نأمل فيك خيرًا قبل هذا الكلام..!!

أمرك عجيب يا صالح ﴿أَتَنْهَنَّا﴾ بما تقول ﴿أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام..!؟

على كل حال نحن لا نصدقك فيما تقول: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ من التوحيد وعبادة الله من دون أصنامنا، ولا نطمئن لكلامك، ولا نثق فيه.
ولم يغضب صالح ﷺ بل واصل الدعوة بالحسنى، حيث:

﴿قَالَ يَنْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَنْقَوْمُ﴾ أخبروني ما رأيكم إن كنت أسير الآن على طريق مستقيم، وبيان واضح من ربي، وآتاني منه ﴿رَحْمَةً﴾ أي: نبوة، هل أترك هذا الطريق المستقيم، وأخالف هذا البيان الواضح، وأسير معكم فيما أنتم عليه، وأعصي الله تعالى؟

أخبروني إذن: ﴿فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ﴾ وينجيني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ راتبعتكم، ولم أبلغكم رسالة ربي؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بموقفكم هذا، ورغبتكم هذه - إن رافقتكم ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ لي وتضييع لحالي، وسوء لمالي.

ويخبر القرآن الكريم، كما في سورة الشعراء الآيتان [١٥٣، ١٥٤] أنهم قالوا له:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وهنا قال لهم:

﴿وَيَنْقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرْوَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤)

أي: يا قوم هذه هي المعجزة والآية التي طلبتموها دليلاً على نبوتي وصدق كلامي واقفة أمامكم، ماثلة بين أيديكم، نفعها لكم، ورزقها ليس عليكم ﴿فَذَرْوَهَا﴾ اتركوها إذن ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ تتحرك بحريتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ من ذبح لها أو إيذاء، ولو فعلتم شيئاً مؤدياً لها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ من ربي ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل فوري سريع.

وفي هذا منتهى النصح لهم، والشفقة عليهم.

فهل أطاعوه؟ كلا.. شأنهم شأن جميع الطغاة !!

ماذا فعلوا؟ قال تعالى:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦٥)

يا سبحان الله..!! ذبحوها ولم ينتفعوا بها معنوياً ولا مادياً، يعني: لم يؤمنوا بسببها، ولم يتركوها ليتفعوا في حياتهم بلبنها. حقاً إنه عناد الباطل وأهله. ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام: لقد حقت عليكم كلمة العذاب.

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي: عيشوا في دياركم كما تحبون، وعلى النحو الذي تريدون ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقط، ثم يأتيكم عذاب الله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿وَعَدٌ﴾ منه سبحانه لكم، ولكل من عاند الحق، وهو وعد صادق ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

وكان الأمر كما قال صالح عليه السلام، عاشوا ثلاثة أيام فقط، ثم جاء العذاب.

يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦)

يعني: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب، ونزل عذابنا بشمود ﴿بِجَنَّتَنَا﴾ من هذا العذاب ﴿صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ لهم، كما نجيناهم كذلك من الخزي والفضيحة التي لحقت بأقوامهم في هذا اليوم، والتي تلحقهم أيضًا في يوم القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَلْقَوْنِي﴾ القادر الذي ينجي أوليائه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي يهلك ويعذب أعداءه.

هذا عن صالح والذين آمنوا معه، وأما الذين كفروا، فيقول عنهم رب العزة:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا﴾

يعني: أهلك الله الكافرين الذين ظلموا بالصيحة، وهي الرجة الشديدة، مع الصوت المدمر لكل شيء، والذي تقطعت له قلوبهم في صدورهم، فماتوا جميعًا.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ﴾ ومنازلهم ﴿جَثِيمًا﴾ ميتين، باركين على ركبهم. وصاروا: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ إِلَّا إِنَّ شَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِشَمُودَ ﴿٦٨﴾

أي: انتهوا تمامًا، وكأن لم يكونوا فيها، ولم يقيموا بها.

وما ذلك العذاب إِلَّا لِأَنَّ شَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿٦٩﴾ وكل كافر يعذب كذلك لكفره ﴿إِلَّا بَعْدًا لِشَمُودَ﴾ من رحمة الله، ولكل كافر أيضًا.

وهكذا، كانت نهاية قوم صالح بالصيحة، وكانت نهاية قوم هود بالريح، وكانت نهاية قوم نوح بالطوفان.

وكانت العاقبة الحسنی هي: نجاة نوح، وهود، وصالح، عليهم السلام، ومن آمن معهم.

وهو درس للدعاة إلى أن طاعة الله واستغفاره؛ يقوي عزمهم، ويشد من أزرهم.

انتهت بذلك قصة صالح عليه السلام مع قومه، كما ذكرتها سورة هود.

وتبدأ الآيات في عرض قصة نبي آخر، وهو: لوط عليه السلام، ولكنها تبدأ بالمرور على «إبراهيم عليه السلام» لتبين لنا رعاية الله له، وإنعامه به.

حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾﴾

أي: جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام ، وهي في طريقها إلى لوط عليه السلام وقومه جاءت له ﴿بِالْبُشْرَى﴾ وهي أن الله سيرزقه بإسحق ومن بعده يعقوب، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا﴾ سلمنا ﴿سَلَامًا﴾.

أجابهم ﴿قَالَ﴾: عليكم ﴿سَلَامٌ﴾ دائم، ثابت من الله تعالى.

وذهب سريعاً وأتاهم بواجب الضيافة حيث ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ أي: مشوي.

وقدّمه إليهم وقرّبه منهم، وعزم عليهم.. فلم يمدوا إلى الأكل أيديهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ﴾ لا تمتد إلى الأكل ولا تصل إليه: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: استنكر حالهم من عدم الأكل، ومن غرابة التصرفات؛ حيث سلموا عليه، على غير عادة أهل هذه البلاد وهذا الزمان، ودخلوا بلا استئذان.

وهنا ﴿أَوْجَسَ﴾ في نفسه وأضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

فلما أحسوا منه الخوف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّا﴾ رسل الله ﴿أُرْسِلْنَا﴾ منه سبحانه ﴿إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

كان هذا الحوار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَبًا يَبْسُوتُهَا بِسَاحِقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿٧١﴾﴾

يعني: وكانت السيدة سارة امرأة إبراهيم عليه السلام قائمة على خدمتهم، وسمعت قول الملائكة: ﴿إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] فعرفت أن الهلاك نازل بقوم لوط، ففرحت لذلك، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ استبشاراً بهلاك الظالمين، فجوزيت على موقفها هذا خيراً.

يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: من بعده ﴿يَعْقُوبَ﴾ أي: بشرت بولد يعيش، ويكون له نسل، وهنا:

﴿قَالَتْ يَوْنُسَ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢)

أي: ﴿قَالَتْ﴾ تعجباً ﴿يَوْنُسَ﴾ أيكون لنا ولد بعد هذا السن؟!!

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ بالنسبة لحالنا وسننا.

ورددت عليها الملائكة:

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ

مَجِيدٌ﴾ (٧٣)

أي: قالت الملائكة لها ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهو الذي يقول للشيء كن فيكون؟ هذه ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: يا أهل بيت النبوة.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في جميع أفعاله ﴿مَجِيدٌ﴾ ممجد في ذاته، وكل

صفاته.

كان هذا حال سارة، وأما إبراهيم عليه السلام فيقول عنه رب العزة:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤)

أي: لما عرف إبراهيم أنهم ملائكة وأنس بهم وفرح لبشارتهم، صار يجادلهم ويناقشهم في شأن قوم لوط عليه السلام.

يقول المفسرون: كانت هذه المجادلة في صورة خمسة أسئلة وجهها للملائكة.

قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا.

قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا.

قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد..؟

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾
[العنكبوت: ٣٢].

ولكن.. لماذا يجادل ويناقش هكذا؟ الجواب في قوله تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ﴾ (٧٥)

أي: أن فيه ثلاث صفات، وهي: أنه ﴿لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول بالعقاب لمن أساء إليه، ﴿أَوَّهٌ﴾ كثير التأوه والخوف من الله ﴿مُنِيبٌ﴾ رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة. وهذه الصفات أثرت في رقة قلبه وفرط رحمته، وجعلته يجادل، ويطلب تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي. ولكن ماذا قالت له الملائكة؟ قالوا له:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦)

يعني: يا إبراهيم لا تناقش في هذا الموضوع، حيث ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم، ولا راد لأمره وقضائه. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ﴾ أيضًا ﴿لَنَايِمٌ﴾ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ بدعاء أو بجدال ونقاش وغير ذلك، وسكت إبراهيم ﷺ.

وتركت الملائكة إبراهيم ﷺ، وخرجت من عنده متوجهة إلى قوم لوط. ووصلوا إلى لوط ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)

أي: لَمَّا وصلت الملائكة رسل الله إلى لوط ﷺ ﴿سَيِّئًا بِهِمْ﴾ أي: استاء لوجودهم خوفًا عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدره؛ لعدم قدرته على حمايتهم ﴿وَقَالَ﴾ معبرًا عن ذلك كله ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد الصعوبة، كثير المشاكل، عظيم البلاء.

وحدث ما توقعه لوط عليه السلام:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨)
 أي: لما جاء قومه على هذا الحال الفاحش ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي﴾ فتزوجوهن، فـ ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وكان زواج المؤمنات من الكفار جائزًا. ثم قال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفاحشة، وفعل المباح ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ وتفضحوني ﴿فِي ضَيْفِي﴾.

يا قوم ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ عاقل، يستمع لكلامي، ويستجيب لدعوتي، وينقذ سمعتي، ولا يهين ضيوفي؟! فماذا قالوا؟

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ (٧٩)

منتهى التبجح، حقًا ليس فيهم رجل رشيد!!
 حيث ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ سابقًا، أنه ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾ وكل النساء ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ أي: لا رغبة لنا في النساء.
 ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ من إتيان الذكور، دون الإناث.

إلى هنا، خزن لوط حزنًا شديدًا، وخاف على ضيوفه من قومه، وأحس بالعجز أمام فحشهم وسوء قولهم، وما قد يفعلونه، ولذلك:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ (٨٠)

أي: ﴿لَوْ﴾ أنني أملك ﴿قُوَّةً﴾ في مواجهتكم، أو كانت لي عشيرة وقبيلة تنصرني ضدكم لبطشت بكم، ومنعتكم مما تريدون.

فلما رأت الملائكة ذلك:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوَا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا

يَلَنفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ
الَّذِي الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿يَلُوطُ﴾ لا تحزن، ولا تخف، فإن لك بهم قوة، وأنت تأوي
إلى ركن قوي شديد. حيث ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ إليك.

ولذلك: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بأي أذى، ولا لضيوفك.

ثم قالوا له: ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: سر ليلاً بأهلك خروجاً من
هذا البلد، ولا يتخلف منكم أحد.

﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ فإنها ستتخلف؛ حيث ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من الكفر والعصيان ﴿مَا
أَصَابَهُمْ﴾.

وهنا: كأن لوطاً قال بعد خروجهم، متى يكون هلاكهم؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ
الصُّبْحُ﴾ وكأنه أراد هلاكاً أسرع من ذلك، إذ قالوا له ﴿الَّذِي الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾!!؟
وجاء الصبح، وجاء أمر الله بالهلاك، يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾
أي: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاكهم ﴿جَعَلْنَا﴾ عالي بلادهم ﴿سَافِلَهَا﴾ حيث رفعها
جبريل ﷺ إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض.

وكذلك ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إهلاكاً لهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين مطبوخ
بالنار ﴿مَّنْضُودٍ﴾ أي: متتابع، حجارة بعد حجارة. وهذه الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة
﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ كل حجر مكتوب عليه اسم صاحبه، الذي سيسقط فوقه. وهكذا كان
عذاب الظالمين من قوم لوط.

ولكن: ﴿مَا هِيَ﴾ هذه الحجارة ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ في أي عصر، أو في أي مصر،
﴿بَعِيدٍ﴾ عنهم سقوطها عليهم، وتعذيبهم بها. ألا فلينتبه الغافلون. وهكذا كانت نهاية
قوم لوط ﷺ. وفيها التهديد الشديد والوعيد الأكيد لكل طاغية فاحش.

ثم تنتقل آيات السورة إلى قصة أخرى، مع نبي آخر، وقوم آخر. يقول ربنا الحميد المجيد سبحانه وتعالى:

﴿وَالِإِن مَّدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾

والمعنى: وأرسلنا ﴿إلى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته. ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم بأسلوب رقيق شفيق: ﴿وَلَا تَنفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ بل أدوهما كاملين، أخذًا من الغير، وعطاءً للغير. حيث ﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ وفي نعمة من الله تعالى، تستحق الشكر، والوفاء في الكيل والميزان.

ثم ﴿إِنِّي﴾ أحبك وأحب إيمانكم، و﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ بكم، في الدنيا وفي الآخرة. ثم قال لهم:

﴿وَيَنْفَوِرَ أَزْوَاجُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾

أي: بعد أن نهاهم عن نقص الكيل والميزان، يأمرهم هنا بالوفاء فيهما على وجه العدل والتسوية. ثم ينهاهم كذلك عن بخس الناس في حقوقهم بصفة عامة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ المادية، أو المعنوية، بخسًا ماديًا - كذلك - أو معنويًا. وهذا النقص وإن كان فسادًا وإفسادًا !! وهذا البخس وإن كان فسادًا وإفسادًا !! إلا أنه لا يكتفي بالنهي عنهم، كصور من الفساد، بل ينهى عن الفساد عامة، حيث يقول لهم: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بل كونوا فيها مصلحين لها، مسعدين لأهلها.

ثم ذكرهم بقيمة الحلال قائلاً:

﴿بَقِيتُ لِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ۝٨٦﴾

يعني: رزق الله الحلال ﴿حَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تفعلون؛ حيث يبارك لكم فيه بشرط إيمانكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا أَنَا﴾ إلا مجرد ناصح لكم فقط، وداع لكم إلى النجاة فقط، ولست ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ من غضب الله وعذابه في حال استمراركم على كفركم وعصيانكم.

أتدرون بماذا أجابوه بعد هذا الكلام الطيب والتوجيه الجميل؟

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧)

أي: ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين به، متهمين عليه، ﴿يَشْعِيبُ﴾ ما هذا الكلام الذي تقول؟ ﴿يَشْعِيبُ﴾ نحن أحرار فيما نفعل، سواء في عبادتنا، أو في حياتنا واقتصادنا، ولا دخل لصلاتك في هذا ولا في ذاك. هل أنت العاقل الراشد فقط من بيننا، حتى تكون وصيًا علينا ناصحًا لنا؟ ابتعد عنا يا شعيب، واتركنا فيما نحن فيه.

ولم يسكت شعيب، ولم يتعد عنهم، بل:

﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨)

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَقَوْمُ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ﴾ أي: بصيرة وهداية ﴿مِّن رَّبِّي﴾ فيما أدعوكم إليه، وأمركم به، وأنهاكم عنه، وأخبروني كذلك إن كان الله تعالى قد ﴿رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو النبوة، وإرسالي إليكم لينقذكم من الكفر والمعصية، هل يصح لي أن لا أدعوكم إلى ما أرسلني به إليكم؟

يا قوم، لا تظنوا أنني أنهاكم عن هذه المعاصي؛ لأفعلها أنا وأقع فيها، بل ما ﴿أُرِيدُ﴾ لما أمركم به وأناكم عنه ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ إلى ذلك سبيلًا، حبًا فيكم، وخوفًا عليكم.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ ونجاحي في تحقيق هذا الغرض ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وعونه وتأنيده.
 ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري ﴿وَالِلَّهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كل أحوالي.
 ثم قال لهم:

﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
 أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩)
 أي: ﴿يَقَوْمِ﴾ لا تحملنكم عداوتكم لي، وبغضكم لدعوتي على مخالفتي، والكفر
 بالله، وعصيانكم له. حتى لا يصيبكم من الهلاك والعذاب ما أصاب الأمم من قبلكم،
 التي فعلت فعلكم، وعاندت عنادكم، وكفرت كفركم.
 وأضاف قائلاً لهم أيضًا:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠)
 يعني: اتركوا عداوتي، ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما كان منكم، وعودوا إليه
 واعبدوه؛ يغفر لكم، حيث ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بمن استغفره ﴿وَدُودٌ﴾ لمن تاب
 إليه، وعاد إلى حمائه.

وبعد هذا الكلام الطيب الرقيق النصوح من شعيب لقومه ماذا كان موقفهم؟ لا جديد
 عند الطغاة، حيث:

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ
 لَرَحِمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١)

أي: ﴿قَالُوا﴾ له مستهزئين به: ﴿يَشْعِيبُ﴾ ما هذا الذي تقول؟ نحن ﴿مَا
 نَفَقَهُ﴾ ونفهم ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ !! ولذلك لن نؤمن بك، ولن نتبع دعوتك.

وليس هذا فقط، بل ﴿وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا عز لك عندنا، ولا مكانة لك
 بيننا، ولا قدرة لك علينا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عشيرتك وأهلك، الذين نراعي خاطرهم
 ﴿لَرَحِمْنَاكَ﴾ بالحجارة حتى الموت، حيث إنه ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ الجانب،
 ولا كريم المنزلة.

قالوا ذلك وشعيب عليه السلام يسمع، دون أن يغضب أو ينفعل، أو يتركهم. بل:

﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢)

يا الله!! لم يغضبه استهانتهم به، وازدراؤهم له، ولكن آلمه خوفهم من أهله وعشيرته، وعدم خوفهم من الله. ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ؟!!﴾

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ سبحانه ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ فلم تخافوه، ولن تؤمنوا به!!؟

لا تظنوا أنه عز وجل غافل عنكم، ولا عن أعمالكم، ولا عن معاصيكم، ولا عن عقابكم، حيث ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم به، وسيجازيكم عليه.

ثم قال لهم الكلمة الأخيرة:

﴿وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣)

أي: ﴿يَنْقَوْمِ﴾ ما دتم مصرين على مواقفكم، فكونوا كما تريدون؛ حيث ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]..

﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على ما أنتم عليه ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ على ما أنا عليه. ولن يضيع الأمر سدى، بل ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ منا، أنتم أو أنا ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا والآخرة، وسوف تعلمون ساعتها ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ فينا، وحتى يكون ذلك ﴿أَرْتَقِبُوا﴾ وانتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

وبهذا بلغ ما كُلف به، وفوض الأمر لله، وكانت نهاية قوم شعيب كما يصورها الله تعالى في قوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئْرِهِمْ جَثِمِينَ﴾ (٩٤) ﴿كَانَ لَوْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِّمَنَ كَذَّبَا﴾ (٩٥)

أي: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالإهلاك والتدمير لأهل مدين ﴿نَجَّيْنَا﴾ من ذلك ﴿شُعَيْبًا﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

وبعد ذلك: ﴿أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكفروا وعاندوا ﴿الصَّيْحَةَ﴾ كما أهلكنا بها ثمود، قوم صالح. حيث أخذتهم الرجفة، وتزلزلت بهم الأرض، وصاح بهم جبريل صيحة ماتوا منها جميعاً.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثَثٍ﴾ باركين على ركبهم ميتين، لا حراك فيهم. ﴿كَانَ لَمْ يَنْفَعُوا فِيهَا﴾ ويعيشوا في رحابها قبلاً ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ﴾ وهلاكاً وطرذاً من رحمة الله ﴿كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ الذين كانوا يشبهونهم في الطغيان، وفحش لسلوك والعادات. وهكذا هلكت أمة طاغية..

وتبدأ الآيات الكريمة في عرض قصة أخرى لنبي آخر، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

وهذه قصة موسى ﷺ مع فرعون وملاه، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: بعد الذين سبق ذكرهم من الأنبياء ﴿مُوسَىٰ﴾ ﷺ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك بني إسرائيل لحريتهم، وكان مع موسى الآيات الدالة على نبوته، والحنة الواضحة على رسالته، فعاند فرعون، واتبعته حاشيته على ضلاله وعناده.

ولذلك: ﴿يَقْدُمُ﴾ فرعون ﴿قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إلى النار، فيوردهم فيها، ويدخلهم إليها، وهو معهم ﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. وليس هذا فقط، بل إنهم ﴿أَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ تصاحبهم فيها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كذلك.

﴿بِئْسَ الرَّفْدُ﴾ أي: العطاء ﴿الْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العون والعطية والنتيجة التي قادم إليها فرعون عليه لعنة الله. وبهذا الشكل السريع والإشارة الخاطفة انتهت قصة موسى ﷺ.

ثم يقول الله تبارك وتعالى لحبيبه في نهاية هذا القصص الذي عشنا معه هذه الفترة السابقة:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعٌ ﴿١٠١﴾﴾

أي: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك يا محمد، وأخبرناك به ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ السابقة، وما حدث فيها بين الأنبياء وأقوامهم هو من أنباء الغيب، التي لا يعلمها إلا الله ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ إعلامًا لك، وتشبيهاً لموقفك، وتعليمًا لأمتك.

هذه القرى: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي: عامر باق، ومنها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ هالك قد اندثر. وأما أهل هذه القرى فما ﴿ظَلَمْتَهُمْ﴾ بما فعلناه فيهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم وعنادهم، وعبادتهم لغير الله. وساعة هلاكهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَ﴾ بها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من هذا العذاب ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ به لهم. ﴿وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعٌ﴾ أي: خسارة على خسارة، وضياعا فوق الضياع، وهلاكًا بعد هلاك.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ يعني: ومثل ما حدث في هذه الأمم الكاذبة الظالمة سنة الله تعالى وطريقته ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أهلها. حقًا: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. فليتنبه الطغاة الظالمون.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القصص الذي ذكرناه ﴿لَآيَةً﴾ وعبرة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يستفيد منه، ويتعظ به، ويهتدي بسببه.

﴿ذَلِكَ﴾ اليوم، الذي يكون فيه العذاب ﴿يَوْمٌ﴾ رهيب ﴿مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ كلهم، من أولهم إلى آخرهم، للحساب والثواب والعقاب.

حَقًّا: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ حيث تحضره الخلائق كلها، من إنس، وجن، وملائكة، وكل المخلوقات. نسأل الله تعالى النجاة فيه، والبعد عن أهواله.

هذا اليوم لم يأت بعد، بل يؤخره الله تعالى، حيث يقول سبحانه:

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (١٠٤)

فلا يظن أحد أنه لن يكون، كلاً، إنه سيكون في الموعد الذي حدده الله له، واختص وحده بعلمه، فليستعد له كل عاقل.
يقول الله تعالى عن هذا اليوم:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥)

نعم.. ﴿يَوْمَ يَكُونُ الرُّوحُ وَالْمَلَكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨)
ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿[النبا: ٣٨، ٣٩].

والناس ساعتها قسمان: ﴿فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ﴾ منهم معذب، ومنهم منعم.
جعلنا الله تعالى من السعداء المنعمين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧)

يعني: ﴿فَأَمَّا﴾ الصنف الأول، وهم ﴿الَّذِينَ شَقُّوا فِي﴾ علمه تعالى أنهم يدخلون النار، ويكون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

كما أنهم يكونون ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ في الدنيا، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: غير ما شاء ربك من أزمنة أخرى تحقق هذا الخلود. وهذا يشمل عذابهم بالنار، في القبر، وفي جهنم، والعياذ بالله تعالى.

ولا مانع من هذا الخلود، وهذا العذاب لهم أبداً؛ حيث ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وبعد أن بين ربنا عذاب الأشقياء، يبين نعيم السعداء، فيقول جل جلاله:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوزٍ﴾ (١٠٨)

يعني: ﴿وَأَمَّا﴾ الصنف الثاني، وهم ﴿الَّذِينَ سُعِدُوا فِي﴾ علمه تعالى أنهم يدخلون ﴿الْجَنَّةِ﴾ ويكونون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: غير ما شاء ربك من أزمنة أخرى، تحقق هذا الخلود. وهذا يشمل نعيمهم في القبر، وفي الجنة.

كل هذا يكون ﴿عَطَاءً﴾ من الله تعالى لهم، وتفضلاً عليهم ﴿غَيْرٌ مَجْدُوزٍ﴾ أي: غير مقطوع أو منته.

ثم يخاطب ربنا محمداً ﷺ، وكل عاقل يعتبر بقصص الأولين قائلاً:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (١٠٩)

أي: لا يكن عندك شك يا محمد - بعد معرفة بطلان عبادة الهالكين من الأمم التي قصصناها عليك - في بطلان ما يعبد قومك هؤلاء، الذين ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ﴾ من الأصنام.

﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ من العذاب، كاملاً ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ كما وفينا من قبلهم من الطغاة الكافرين المعاندين، وفي هذا تهديد للكفار، ووعد.. وثبت للنبي ﷺ، والمؤمنين معه، وتأيد.

ثم يقول الحق سبحانه كذلك:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١١٠)

يعني: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ من قومه فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، كما آتيناك القرآن فاختلف فيه من قومك، فمنهم - كذلك - من آمن به، ومنهم من كفر. فلا تحزن، ولا يضيق صدرك بهذا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بعدم استئصال المكذبين من هذه الأمة
 ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاك، كما حدث مع السالفين.
 ومع هذا الإمهال ف: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مَمْتَةٍ﴾ أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ بالغ في
 عدم الطمأنينة. على كل حال..

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾
 أي: ﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ من هؤلاء وهؤلاء، أي: المكذبين السابقين والمكذبين من قومك،
 إِلَّا ﴿لِيَؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ جزاء ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾.
 حيث ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وسيحاسبهم عليه. وما دام الأمر كذلك..

﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
 في هذه الآية والآيتين بعدها، يرسم الله منهجاً للحياة الإسلامية، يخاطب فيه، ويكلف
 به النبي ﷺ، ومن آمن معه.
 يأمر فيه أولاً قائلاً: ﴿فَأَسْتَقِمْ﴾ على منهج الله ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ به في القرآن
 الكريم، وبينته السنة النبوية.
 ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: ومن آمن معك كذلك.

وينهى فيه ثانياً بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ على غيركم، في حال غناكم، أو قوتكم، أو
 نجاحكم.

حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتستقيمون على منهج الله، أو تطغوا على
 غيركم ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم به؛ فيجازيكم عليه بما تستحقون.
 ثم ينهى فيه - كذلك - ثالثاً - فيقول:

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

يعني: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ بميل، أو رضا، أو تعاون على إثم ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في حال ضعفكم بالاستعانة بهم، أو في حال قوتكم بالتودد إليهم. فإنكم لو فعلتم هذا أو قريباً منه ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بسبب ركونكم إليهم، ﴿وَلَوْ﴾ ساعتها ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعون عنكم عذاب الله الناتج عن مخالفتكم أوامره. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أبداً.

ثم يأمر ربنا - في هذا المنهج - رابعاً، فيقول:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤)

أي: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وأداها في كل أوقاتها، كاملة غير منقوصة، حيث ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ كهذه الصلوات الخمس ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فيصير المرء خالياً من العوائق والذنوب الحائلة بينه وبين تطبيق هذا المنهج الرباني للحياة، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من الأوامر والنواهي في هذا المنهج ﴿ذِكْرِي﴾ موعظة نافعة ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾.

ولأن تطبيق هذا المنهج يحتاج إلى عزيمة ومثابرة، فإن الله تعالى يقول لمن يريد النجاح فيه:

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥)

أي: اصبر على التحلي بما أمرت به، وعلى التحلي عما نهيت عنه، حتى تنجح نجاحاً كاملاً، وتحسن إحساناً تاماً؛ فتكون من المحسنين.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يجازيك خيراً؛ حيث إنه سبحانه ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم يقول سبحانه منبهاً على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أٰبَحَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦)

والمعنى: لو كان من القرون والأمم السابقة ﴿أُولُوا بِقِيَّةٍ﴾ من فضل ودين وعلم، يقومون بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، و ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾.. لَانْصَلَحَ حال هذه الأمم، وما حل بهم العذاب على نحو ما ذكرناه عنهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ﴾ نهوا عنه، وابتعدوا منه، فنجوا من هذا العذاب. ولكن الأكثرية لم تنه عنه، ولم تستجب لمن نهى، وكانوا ظالمين ﴿وَاتَّبَعَ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ شهواتهم، و ﴿مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ من النعيم والملذات ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. وفي هذا تنبيه لهذه الأمة حتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتطيع من يفعل هذا، ولا تظلم، ولا تتبع شهواتها حتى لا تكون من المجرمين. ثم يبين ربنا أن الفساد سبب الهلاك. فيقول جل جلاله:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

أي: ليس من سنة الله تعالى أن يهلك بلدًا ﴿وَأَهْلِهَا﴾ بعيدون عن الفساد ﴿مُصْلِحُونَ﴾ لأحوالها، وأهلها بشرع الله تعالى، حيث إنه سبحانه لو فعل ذلك لكان ظلمًا، والله منزّه عن الظلم.

ثم يبين عز وجل سبب اختلاف الناس والأمم فيما بينها، والحكمة في هذا الاختلاف. فيقول جل وعلا:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَٰذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

يعني: طبائع الناس مختلفة، ولذلك يختلفون، ومن الأمور التي اختلف حولها الناس طاعة الله تعالى.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ الذي خلق الجميع ﴿لَجَعَلَ﴾ هؤلاء ﴿النَّاسَ﴾ المختلفين ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وطريقًا واحدًا في الطاعة، لا تختلف حولها بكفر وإيمان، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ فصاروا مختلفين، منهم المؤمن ومنهم الكافر.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ حول الكفر والإيمان ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم، فهؤلاء لم يختلفوا على طاعة الله والإيمان به.

﴿وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ على هذا الوضع المختلف، ليميز الخبيث الذي يختار الكفر من الطيب الذي يختار الإيمان.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الأزلية، وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والله الحكمة العليا والمشيتة الكبرى.

ثم يخاطب ربنا عز وجل حبيبه في نهاية السورة مبيّنًا له حكمة قصه هذا القصص الذي سبق ذكره، فيقول جل جلاله:

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

أي: وكل هذا القصص، وما فيه نقصه عليك ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ونقويه، حتى لا يتأثر بعناد قومك.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا خيال فيه، ولا كذب حوله ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ لمن ينتفع به ويعتبر ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يتبعوك.

وأما المعاندون فهددهم..

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١) ﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٢٢)

يعني: ﴿قُلْ﴾ للمعاندين الكافرين ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما جئت به، ودعوت إليه، ولا ينتفعون به، ويتعظون بما جاء فيه ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وسيروا على طريقتكم الخاطئة، كما تريدون، ف ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ وسائرون على طريق الحق، كما هدانا الله ﴿وَأَنْظِرُوا﴾ بنا ما تريدون لنا من الهلاك ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ كذلك ما ينزل بكم من الهلاك، وما ينعم الله علينا به من الفوز والفلاح.

وقد تحقق ما وعد الله به الفريقين: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا

السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

ثم ختمت السورة بهذا التوجيه الرباني:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۚ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾

أي: لا تخفى على الله خافية، حيث ﴿لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وسيجازي الجميع بما يستحقون، في يوم ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ﴾ فيه ﴿الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾.

لذلك: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وحده، يجزيك خيراً، ويقيك شراً.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ جميعاً، المؤمنون والكافرون، وسيجازي المؤمنين بعفوه ورحمته، والكافرين بعذابه ونقمته.
